هوامش

ليس مستغرباً أن تختار مؤسسة «فاركي» العالمية المعلمة الإيرانية الكردية ثريا مطهرنيا ضمن عشرة معلمين استثنائيين تم ترشحيهم للفوز بجائزة «فاركي»، وهي التي وهبت نفسها لتعليم الفقراء في القرى

ثريا مطهرنيا مع تلاميذها (العربي الجديد)

ثريا مطهرنيا

معلمة إيرانية وهبت نفسها للتلاميذ الفقراء

طهران ـ **صابر غل عنبري**

لم يكن الراتب هو الذي دفع المعلّمة الكرديّة الإيرانية ثريا مطهرنيا (44 عاماً)، لاختيار التعليم في القرى. الأمر ببساطة يتعلق بحبّها للعمل في المناطق النائية. ضحّت بحياتها وحياة أولادها ومالها وحتى بالمستحقات التي تتقاضاها من وزارة التعليم الإيرانية لنحو ثلاثة عقود من أجل رسم البسمة على شفاه تلاميذ فقراء وأسرهم، وتمكينهم من الناحيتين التعليمية والاقتصادية.

بذلت ثريا جهوداً استثنائية في منطقة «بيجار» التابعة لمحافظة كردستان الإيرانية. ذاع صيتها في إيران والعالم إلى أن اختارتها مؤسسة «فاركي» الخيرية العالمية التي تأسست عام 2010 وتهتم بتحسين معايير التعليم للأطفال المحرومين، ضمن قائمة عشرة معلمين استثنائيين في أنحاء العالم، تنافسوا للفوز بجائزة «فاركي» البالغة مليون دولار بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (يونسكو)، قبل أن تفوز بها معلمة أميركية.

اختارت ثريا مهنة التعليم قبل 26 عاماً، بتوصية من والدها، علماً أنها لطالما أرادت أن تكون كابتن طائرة، فحلم التحليق في السماء كان يراودها مذ كانت طفلة. تقول ثريا لـ«العربي الجديد»، إنها خاضت أول تجربة في سلك التعليم في قرية نائية بعيدة تابعة لقضاء بيجار في كردستان. وتوضح أن حلاوة الخدمة الإنسانية في منطقة محرومة ومع تلاميذ وأسر فقيرة زادت تمسكها بالمهنة ودفعتها إلى مواصلتها، الأمر الذي شجعها على رفض الانتقال إلى المدينة وتولي مناصب تعليمية عرضت عليها.

تتحدث ثريا بشغف وحزن عن تلاميذها وتلميذاتها، كأنهم أبناؤها وبناتها، مشيرة إلى معاناتهم من جراء الفقر والأمراض والإدمان والطلاق والهجرة والبطالة وضعف الإمكانيات والمدارس المتهالكة وغيرها. وتقول إن «كل ما سبق حتّم عليّ البقاء بينهم انطلاقاً من الواجب الأخلاقي والإنساني والشعور بالمسؤولية تجاه هذه العائلات وأولادها».

وكلّما ابتعدت القرى عن المدن كلّما قلت إمكانياتها وكثرت مشاكلها. لكن المعلمة الإيرانية الاستثنائية ظلت تقصدها خلال السنوات الـ26 الماضية، علها تساعد في حل مشاكلها وحث السلطات على الاهتمام بها، وإدراكاً منها لأهمية هذه المناطق و«دورها الحيوي» في تنمية البلاد. تضيف ثريا: «أعشق التعليم في القرى. الأمر صعب نعم، لكن له حلاوة لا يمكن استبدالها بأي شيء آخر»، موضحة أن «القرى هي تجمع للأصالة والحداثة. أحياناً تواجه قضايا خاصة ومعقدة. لكن تنمية القرى تحد من الهجرة نحو المدن بحثاً عن فرص عمل». بالإضافة إلى طفليها، ربت ثريا نحو ألفي تلميذ وتلميذة في مختلف المراحل الأساسية في القرى. وفي وقت كانت تزاول فيه مهنة التعليم، كانت تتولى مهمة إدارة المدرسة وتنظيفها. وتقول إن المعلمين والمعلمات في بعض القرى، وبسبب غياب القوة العاملة والزملاء، يقومون بمهام عدة في آن. تواصلت «العربي الجديد» مع عدد من سكان قضاء بيجار الكردي، غربي إيران، فأعربوا عن استحسانهم لما قدمته المعلمة ثريا وأشادوا به. وصفها السبعيني أحمد بأنها «معلمة فذة قل نظيرها»، مشيراً إلى أنها كانت تبحث في القرى عن تلاميذ وتلميذات تركوا الدراسة لتعيدهم إليها. يضيف أن «ثريا ليست معلمة فقط، بل كانت تقوم بأعمال خيرية خارج مهنة التعليم»، لافتاً إلى أنها «كانت تنقل على نفقتها وبنفسها تلاميذ وتلميذات مرضى إلى مدينة سنندج، مركز محافظة كردستان، وأحياناً إلى طهران لتلقي العلاج». تقول ثريا لـ«العربي الجديد»، إن «ترك الدراسة لم يكن المشكلة الوحيدة»، مضيفة أن «فتيات قاصرات كن يجبرن على الزواج بسبب ظروف أسرهن السيئة، وخصوصاً الفقر. وليس بالضرورة أن يكن تلميذاتي، لكنهن يبحثن عني ويطلبن المساعدة».

باختصار

حلاوة الخدمة الإنسانية في منطقة محرومة ومع تلاميذ وأسر فقيرة زادت تمسكها بالمهنة ودفعتها إلى مواصلتها

■■■

ما تملكه ثريا لا يعدّ كافياً لتغطية الإنفاق على تلاميذها وتلميذاتها سواء المرضى منهم أو المحتاجين

■■■

انشغالاتها الكثيرة لم تمنعها من إكمال الدراسات العليا في العلاقات الدولية

الأعمال الإنسانية لثريا لم تقتصر على أبناء منطقتها ومحافظتها، بل وصلت إلى مدن ومحافظات أخرى أيضاً، وساعدت آخرين في هذه المناطق. تقول لـ«العربي الجديد»: «تشرفت بخدمة فتيات أخريات في مدن وقرى أخرى في أنحاء البلاد، علماً أنهن لم يكن تلميذاتي».

ما تملكه ثريا لا يعدّ كافياً لتغطية الإنفاق على تلاميذها وتلميذاتها سواء المرضى منهم أو المحتاجين. وعلى الرغم من تخصيص حصتها من ميراث حصلت عليه من والدها، وجزءاً كبيراً من راتبها الشهري الزهيد لهذا الغرض، إلا أنها تعتمد في الوقت نفسه على تبرعات زملائها وزميلاتها وأبناء مدينتها (بيجار) والمحافظة (كردستان والمحسنين في جميع أنحاء إيران. تدعو ثريا الحكومات والمؤسسات الأهلية والشركات إلى لعب دورها في هذا العمل الإنساني، وكانت قد تعهدت بأن تخصص جائزة «فاركي»، في حال فازت بها، للعمل الإنساني.

قصّة سارة في قرية همايون في منطقة بيجار، والتي كانت ثريا تدرّس فيها، قادتها إلى مجال إنساني آخر وهو تقديم العون لأطفال وتلاميذ يعانون من أمراض صعبة ومزمنة. كانت سارة قد أصيبت بحروق شديدة في وجهها وهي في شهرها السابع بعد الولادة، كما فقدت سبعة من أصابعها. تقول ثريا: «لم أكن أتحمل آهات ومعاناة سارة من دون أن أفعل شيئاً. دخلت في نقاش طويل مع أهلها لإقناعهم بالموافقة على أخذها إلى طهران للعلاج. وبعد إصرار، نجحت في الحصول على موافقة أهلها، وبدأنا علاجها وأجريت لها عشرات العمليات الجراحية خلال رحلات متكررة إلى العاصمة». تضيف ثريا: «عولجت سارة وارتسمت على محياها ابتسامة بعد العلاج، وكانت أكبر هدية إلهية لي. مساعدتها كانت توفيقاً ربانياً قادني إلى البحث عن المزيد من الأطفال مثلها ومساعدتهم». وتشير إلى أن الأجمل بالنسبة إليها هو عندما كانت تشاهد خروج الأطفال سالمين من غرف العمليات الجراحية في المستشفيات، «دموعي كانت تتحول إلى فرح وسرور». لكن أمرّ ذكريات ثريا كانت «عندما كان يفقد بعض هؤلاء الأطفال المرضى أرواحهم الطاهرة على الرغم من تلقيهم العلاج المناسب».

وتقول ثريّا: «في طفولتي، كنت أعشق الاهتمام بالنباتات والحيوانات وقضاء الوقت مع صديقاتي. كما أن والديّ كانا يهتمّان بتربيتنا اهتماماً كبيراً». وحين أصيبت والدتها بمرض السرطان، كانت تقول لابنتها التي راحت تساعدها لتجاوز هذه المحنة: «إياك أن يشغلك مرضي هذا عن تعليم تلميذاتك والأطفال المرضى وعلاجهم».

تذكر ثريّا قصة ما زالت تلازمها ويصعب عليها نسيانها. تقول: «تعرفت إلى طفلة مريضة تحتاج إلى زرع كبد. فصيلة دمي كانت من فصيلة دمها نفسها، فقررت أن أمنحها جزءاً من كبدي لإنقاذ حياتها، لكن بعد إجراء كل الفحوصات، أخبرتنا لجنة الأطباء بأن الطفلة بحاجة إلى كبد كامل. فأرسلناها إلى مدينة شيراز حيث يوجد مستشفى معروف بزرع الكبد».

تضيف: «استأجرنا عائلتها بيتاً في شيراز وتم زرع كبد لها بعد فترة، وظلت عائلتها هناك لمدة شهرين لاستكمال علاج الطفلة التي لم يتأقلم جسدها مع الكبد الجديد بسبب مرض وراثي ومشاكل جسدية أخرى ففارقت الحياة».

وأخيراً

أنا ابنة لغتي

رشا عمران

يستغرب أصدقائي أن اللغة التي أستخدمها في هاتفي المحمول هي العربية. أسمع منهم تعليقات أحيانا تستهجن أنني وضعت اللغة العربية خيارا وحيدا لهاتفي المحمول. وأصدقائي هؤلاء جميعهم يعيشون في بلد عربي، يتكلمون العربية بلهجاتها المتعدّدة، يقرأون كتبا بها، يشاهدون أفلاما مترجمة إليها، يعبرون عن مشاعرهم بها. يفعلون كل شيء في حياتهم عبر اللغة العربية التي هي لغتهم الوحيدة، ومن عرف منهم لغة أخرى فمعرفته بها بقصد التواصل في حالات الضرورة، حتى من كان منهم قد تعلم في مدارس تستخدم إحدى اللغات الأجنبية لغة أساسية في التعليم، فإن تلك اللغة لم تستطع التحوّل إلى لغة تواصل يومية لديه، إذ ببساطة هو ما زال يعيش في مجتمع قلة نادرة فقط منه تستخدم اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في التواصل اليومي، ولأسباب طبقية، غرضها التمايز عن سائر المجتمع، حالة من الاستعلاء الطبقي الثقافي، إن صحّ التعبير، بوصف اللغة ثقافة أولا. يمكن هنا تفهم أن يستخدم هؤلاء اللغة الإنكليزية في هواتفهم أو حواسيبهم، فهو متسق مع آلية تفكيرهم. لكن ما هو السبب الذي سيجعل امرأة مثلي، هويتها اللغوية الأولى والأساسية اللغة العربية، أن تجعل إعدادات الأجهزة الذكية بالإنكليزية؟

تصحح صديقتان لي لفظ بعض المفردات باللغة الإنكليزية حين أتحدثها، وذريعتهما في ذلك أنني «مثقفة»، ولا يجوز أن أخطئ في اللفظ. قلت لهما مرارا إن الموضوع لا علاقة له بالثقافة، وإن الإنكليزية ليست لغتي ولا أتقنها، وإنني أعرف مترجمين أفذاذا ولهم باع طويل في الترجمة عن لغاتٍ أخرى، ومفردة «مثقف» تليق بهم أكثر بكثير مما تليق بي، ومع ذلك يخطئون في اللفظ وفي استخدام المفردات، حين يضطرون للحديث في اللغة التي يترجمون عنها، ذاك أن العقل البشري يشتغل بدهاء مدهش، ففي أثناء عملية الترجمة، يتم التركيز على المعنى وعلى فهم الجملة وتراكيبها وطريقة نقلها إلى اللغة العربية. يتحدّث المترجم مع النص، كما لو أنه يتحدّث مع نفسه. لا يكترث بلفظ الحرف إلا إذا كان اللفظ يغير المعنى، هو يفكّر باللغة العربية كيف سينقل نصا مكتوبا بلغة أخرى إليها. في التواصل مع الآخرين، يحدث الشيء ذاته، نحن نفكر باللغة العربية بمعنى ما نريد قوله بالإنكليزية مثلا، لن يكون لفظنا كما لفظ أبناء اللغة نفسها حتما لأننا لا نستخدم هذه اللغة إلا نادرا.

لا بد من التنويه، أن إتقان الإنكليزية، على الأقل، بات أمرا ملحّا وضروريا للأجيال الشابة التي لا خيارات أمامها سوى التعامل مع التقنيات الحديثة في العمل والحياة، خصوصا أن العالم يتجه نحو التحول إلى عالم رقمي بكل تفاصيله، وهو ما يحتاج إتقان لغة مخترعي الرقميات ومطوّريها. وللأسف، لغتنا العربية عاجزة عن مواكبة هذا التطور بسبب عجز العرب عن الإنتاج والمساهمة في هذا التحول، وبقائهم في إطار المستهلكين فقط.

بعيدا عن العالم الرقمي، وأنا لا أفقه به شيئا، لماذا سيكون معيبا لمن هي مثلي أن تخطئ في لفظ لغةٍ لا تتقنها أصلا؟ وأن يأتي النقد من أبناء لغتها، وليس من أهل اللغة نفسها؟ لدي أصدقاء، كتاب ومثقفون غربيون كثر، منهم من لغتهم الأم الإنكليزية، ومنهم من يتقنها لغة وسيطة. أتحدث معهم وأخطئ وأعجز أحيانا عن استحضار المفردات المناسبة، ومع ذلك نتواصل ويفهمون ما أقوله من دون اعتبار ذلك نقيصة! شيء آخر: هناك أجانب ومستشرقون كثيرون يعيشون في بلادنا منذ سنوات طويلة، منهم من يرفض التحدّث تماما بالعربية، (حالة استعلاء المستعمر الأبيض)، ومنهم من يتقن العربية لكنه ما يزال يخطئ في لفظ بعض أحرفها، ومع ذلك سنمتدح طريقته وقدرته على استخدام لغتنا، مهما كان فيها من أخطاء. الأمر على ما أظن هو في أزمتنا الشخصية مع هويتنا، واللغة جزء رئيس من هذه الهوية الإشكالية. وبالعودة إلى الهاتف المحمول، ليس من باب العشوائية أن تضع الشركة المصنّعة لأي جهاز خيارات عدة للغة المستخدمة، فذلك ليس فقط من باب تسهيل الاستخدام والترويج والربح، بل أيضا من باب فهم أن اللغة كيان شخصي وذات وهوية، و ليس من حق أحد فرض لغته على أحد آخر، إلا إذا كان مختلا أو مستعمرا. .. الدول الاستعمارية القديمة تجاوزت تاريخها أخيرا، علينا نحن أيضا تجاوزه.

> ما هو السبب الذي سيجعل امرأة مثلي، هويتها اللغوية الأولى اللغة العربية، أن تجعل إعدادات الأجهزة الذكية بالإنكليزية؟

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**